حول كلمة تصوف

للدكتور عبد الحليم محمود

استاذ الفلسفة الاسلامية بكلية أصول الدين

(٣)

اننى أرى ـ كما ترى الغالبية العظمى من الباحثين الحديثين ـ أن لفظة « التصوف » تنتسب الى الصـــوف . وكما انه يقـــال تقمص اذا لبس القميص ـ كذلك يقال تصوف اذا لبس الصوف . ومن أبرز القائلين بهذا الرأى المرحوم الاستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبـــد الرازق ، والمرحوم الدكتور زكى مبارك ، والمستشرق مرجليوت .

واذا كانت هذه الكلمة تنتسب الى الملبس ـ وهو مظهر وشكل ورسم ـ فليس معنى ذلك أن التصوف مظاهر وأشكال ، وليس من المحتم دائما أن يكون المعنى الاصلى للاسم هو المراد مما وضع الاسم له ، اذ المعنى الاصلى قد يتطور ويتغير ويختلف، وقد يقصد عكسه.ومن أجل ذلك فانه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أن ينسبوا التصوف الى الصوف بحجة أن انتسابه الى المظاهر يحط من شأنه .

حقيقة أن الباحثين كثيرا ما يجدون صلة وثيقة بين المعنى الاصلى للاسم وما وضع الاسم له . أو بين الاسم والمسمى . ولكن ذلك ليس مطردا .

والواقع أن التصوف أصبح معنى معروفا لا شأن له بالمظاهر والاشكال. واذا كان بعض الاشخاص لا يزالون يمارون فى قيمتـه أو فائدته فانهم لا يتخذون التسمية تكأة لهذه المماراة . ولو فرضنا أنهم اتخذوها تكأة لخرجوا عن سمت الباحثين ، ولاصبحوا سخرية الساخرين .

على أننى أرى ، كما يرى كثير غيرى وكما يثبت التاريخ ، أن هذه الكلمة « تصوف » لم توضع فى الاصل للتصوف بمعناه العادى الذى نفهمه الآن، وانما وضعت ، فى المبدأ ، لتدل على نمط من العزوف عن الدنيا انها كانت علامة الزاهدين والمتنسكين فسمى بها هؤلاء الذين انصرفوا عن الدنيا .

ان العزوف عن الدنيا عادة قديمة جدا يتمسك بها بعض الناس تمشيا مع فكرة دينية وارضاء لشعور تنسكى، وقد حدثنا القرآن عن هؤلاء الذين ترهبوا ابتغاء رضوان الله . ويتمذهب بها بعض الناس ارضاء لفكرة منطقية واتباعا لمذهب عقلى يرى السعادة فى الهدوء ، والهدوء لا يتأتى الا بتحـديد الرغبات والبعد عن الشهوات وذلك هو الزهد .

وسواء أكان المعروف عن الدنيا دينا أم كان منطقا فانه موجود منذ أقدم العصور ، فالدين صاحب الدنيا منذ نشأة الانسان فيها ، والمنطق صاحب الانسان منذ وجوده ٠

ولقد رأى هؤلاء الزهاد - من ناحية الملبس - فى الصوف ما يحقق أهدافهم التى تتصل بالتقشف والشظف والخشونة ، فهو متين رخيص خشن لا يحتاج الانسان معه فى الشتاء الى غيره ، ولا يحتاج الى تغييره كثيرا : ذلك أنه لا يبلى بسرعة ٠٠٠ فتصوفوا : أى لبسوا الصوف ٠ وكان لابد من اسم يطلق على هؤلاء ، وكان من السهولة بمكان أن يطلق عليهم صوفية ٠٠٠ وأطلق الاسم مصادفة أو تعمدا فذاع وشاع وأصبح الزهاد يعرفون - فى البيئات العربية - باسم الصوفية ٠

هؤلاء الزهادكانوا موجودين فى العصر الجاهلى تدينا أو منطقيا، وكانوا موجودين فى صدر الاسلام تدينا أو منطقا حتى اذا كانت رابعة ٠٠ وكان الجنيد وكان ذو النون ٠٠٠ حتى اذا وجد التصوف بمعناه الحقيقى وكان ممثلوه عازفين عن الدنيا لابسين للصوف أطلقت الكلمة عليهم ٠

ولم يميز الناس بين حالتين مختلفتين كل الاختلاف هما : حالة الزهد البحت وحالة التصوف ولم يثر الصوفية على التسمية فى حد ذاتها٠ومن لم يرض منهم نسبتها الى الصوف ذهب فى نسبتها مذاهب أخرى ٠

واذا كانت الكلمة تنتسب الى الصوف فهى كلمة موفقة كل التوفيق - ولعل عناية المقادير هى التى هيأت لها الجو للظهور والشيوع - اذا أنها تمت بصلة حرفية نغمية جرسية الى كثير من الكلمات التى تدل على معان وثيقة الصلة بالتصوف كالصفاء « وصلته بالتصوف ظاهرة » والصف « الصف الاول فى الجهاد : جهاد العدو وجهاد النفس » والصفة « صفة مسجد رسول الله التى كان يعيش فيها قوم وهبوا أنفسهم لله وللجهاد »٠ والصفة « الصفة الجميلة » ٠ وسوفيا اليونانية التى تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص » ٠

وكان من التوفيق أيضا هذا الغموض نفسه فى أصل الكلمة ، فما من شك فى أن اختلاف المذاهب والآراء فى أصلها يبين الكثير من معانى التصوف ومن مظاهره ٠ والله ولى التوفيق ٠